دروس وعبر

محنـــة الإمـــام أحمد
وما تضمنته من دروس وعبر للأمة

د. بركة بنت مضيف الطلحي
مديرة إدارة التوجيه والإرشاد بالمسجد النبوي

أهمية معرفة منهج أئمة السنة في وقت الفتن:

لقد أمر الله تعالى بأخذ القدوة والأسوة في قوله تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا}(١).

يقول ابن كثير: "هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين"(٢).

وقال تعالى: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه}(٣) قال ابن سعدي: "قد كان لكم يا معشر المؤمنين {أسوة حسنة} أي: قدوة صالحة وائتمام ينفعكم، {في إبراهيم والذين معه} من المؤمنين؛ لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفا" (٤).

وحث النبي صلى الله عليه وسلم على متابعته ومتابعة أصحابه وخلفائه من بعده، فقال: ''عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات، فإن كل بدعة ضلالة'' (٥).

---

(١) سورة الأحزاب: [٢١]
(٢) تفسير ابن كثير (٦/٣٩١).
(٣) سورة الممتحنة: [٤].
(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٥٤).
(٥) رواه الترمذي، أبواب العلم (رقم/٢٦٧٦) وابن ماجه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم (رقم/٤٢) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم: ٢٧٣٥).

وفي هذا الحديث حض من النبي صلى الله عليه وسلم على الاقتداء به عليه الصلاة والسلام وبأصحابه رضوان الله عليهم، وذلك لأهمية وجود القدوة والأسوة في حياة المسلم. "وقال بعض العلماء الأسوة الحسنة في الرسول صلى الله عليه وسلم، الاقتداء به والاتباع لسنته، وترك مخالفته في قول أو فعل" ([1]).

وممن يقتدى بهم بعد الصحابة أهل العلم الذين سلكوا سبيل النبي صلى الله عليه وسلم واقتفوا أثره" هو الصراط الذي كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه، وهو قصد السبيل، وما خرج عنه، فهو من السبل الجائرة، وإن قاله من قاله، لكن الجور قد يكون جورا عظيما عن الصراط، وقد يكون يسيرا، وبين ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، وهذا كالطريق الحسي، فإن السالك قد يعدل عنه ويجور عنه جورا فاحشا، وقد يجور دون ذلك، فالميزان الذي يعرف به الاستقامة على الطريق والجور عنه هو ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليه، والجائر عنه؛ إما مفرط ظالم، أو مجتهد متأول، أو مقلد جاهل. فمنهم المستحق للعقوبة. ومنهم المغفور له. ومنهم المأجور أجرا واحدا، بحسب نياتهم ومقاصدهم واجتهادهم في طاعة الله تعالى ورسوله، أو تفريطهم" ([2]).

"والاقتداء بأهل العلم والعمل والاستقامة في الهدي والسمت" ([3]) من الدين الذي لا يقوم إيمان المرء المسلم إلا به.

فالاقتداء بأهل العلم والدين يحقق معرفة مراد الله عز وجل ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم بفهم السلف الصالح للنصوص الشرعية وتطبيقها، ومن العلماء والأئمة الذين يقتدى بهم في الإسلام؛ الإمام أحمد بن حنبل، الذي وقف في الإسلام موقفا لم يقفه أحد غيره، وحفظ الله به الإسلام، فكان السلف يرون أن موقفه أعظم من موقف أبي بكر الصديق في حروبه للمرتدين، وذلك؛ لأن أبا بكر كان معه من يؤيده

([1]) سلاح المؤمن في الدعاء (ص: ١٣١).

([2]) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١٣١/١).

([3]) تفسير ابن باديس (ص: ٢٣٨).

ويؤازره، والإمام أحمد لم يكن معه أحد، وقد ثبته الله في وقت الفتنة، وطبق النصوص الشرعية عمليا، لذلك فإن معرفة سيرته، وموقفه في المحنة عظيم الفائدة، مهم للناس، وخاصة للشباب وتزداد الأهمية عند تكاثر الفتن، وانتشار الشبهات مثل هذا الزمن الذي ضعف فيه العلم عند أكثر الناس، حتى اتخذوا رؤوسا جهالا، يردون إليهم ويصدرون عنهم خاصة عند نزول الفتن، فضلوا وأضلوا، نسأل الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم السلامة والعافية... والله أعلم.

ثبات الإمام أحمد على الحق في المحنة:

عاش الإمام أحمد في عصر تميز بالثقافة وانتشار العلم والترجمة، وهو العصر العباسي، حيث عاصر ثمانية من حكام الدولة العباسية، وهم: المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وهذه الخلافة بدأت قوية ثم أخذت في الضعف حتى انتهت، ومن أسباب ضعفها البدع التي ظهرت، وانتشرت بسبب الترجمة لكتب الفرس والروم، وانتشار البدع والخرافات بسببها، وتخطيط الأعداء للإسلام وأهله بالتظاهر بالإسلام وبث الفتنة بين أهله.

فلا تزال الأمة على دينها الصحيح وعلى أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، حتى بدأت بوادر الفتنة تظهر في عهد الرشيد، ولكنه لم يرض بها؛ بل كان يتوعد من قال بخلق القرآن بالقتل إن أظفره الله به [1]، وازداد الأمر فشوا في عهد الأمين، ولكنه كان يتردد في إظهار هذه المقولة الشنيعة مخافة من العلماء، وبقيت لم تظهر ويدعى لها حتى ولاية المأمون وكان ذكيا متكلما، له نظر في المعقول - فاستجلب كتب الأوائل، وعرب حكمة اليونان، وقام في ذلك وقعد، ورفعت الجهمية والمعتزلة رؤوسها، بل والشيعة.

وظهر في زمنه القول بخلق القرآن الكريم حيث علت رؤوس أهل البدع وساموا أهل السنة والجماعة سوء العذاب، وترك بعده شرا وبلاء في الدين، فأنكر ذلك العلماء" [2].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣٦/١١) بتصرف.

(٢) المرجع السابق بتصرف.

فامتحن العلماء وأجابوا جميعا غير أربعة منهم: الإمام أحمد، ومحمد بن نوح، والقواريري، والحسن بن حماد سجادة.

ثم أجاب القواريري، والحسن بن حماد سجادة، وثبت أحمد ومحمد، وكان أحمد بن حنبل قد أحضر، فلما رأى الناس يجيبون، وكان رجلا لينا، فانتفخت أوداجه، واحمرت عيناه، وذهب عنه اللين غيرة على دين الله. ([1]).

وهذه من سنة النبي صلى الله عليه وسلم الغضب إذا انتهكت حرمات الله عز وجل، كما في حديث عائشة، قالت: "ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل ([2]).

وذلك أنه إمام يقتدى به، فلو أجاب لهلك الناس بهذه المضلة، فعن "عباس الدوري، قال: سمعت أبا جعفر الأنباري يقول: لما حمل أحمد إلى المأمون، أخبرت، فعبرت الفرات، فإذا هو جالس في الخان ([3])، فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر، تعنيت. فقلت: يا هذا، أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فو الله لئن أجبت إلى خلق القرآن، ليجيبن خلق، وإن أنت لم تجب، ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك، فإنك تموت، لابد من الموت، فاتق الله ولا تجب"([4]).

وثبت الله الإمام أحمد على الحق رغم ما تعرض له من التعذيب والفتنة والضرب، ومات رفيقه محمد بن نوح وصلى عليه الإمام أحمد، وبقي الإمام أحمد على الحق ثابتا بإذن ربه صابرا محتسبا ([5]).

"قال محمد بن إبراهيم البوشنجي: جعلوا يذاكرون أبا عبد الله بالرقة في التقية وما روي فيها.

([1]) المرجع السابق (١١/٢٣٦).

([2]) رواه مسلم، كتاب الفضائل (٢٣٢٨).

([3]) الخان: النزل أو الفندق. مختار الصحاح (ص: ٩٩).

([4]) سير أعلام النبلاء (١١/٢٣٩).

([5]) سيرة الإمام أحمد (ص/٥١) بتصرف.

فقال: كيف تصنعون بحديث خباب: (إن من كان قبلكم كان ينشر أحدهم بالمنشار، لا يصده ذلك عن دينه) ([1]). فأيسنا منه.

وقال لست أبالي بالحبس، ما هو ومنزلي إلا واحد، ولا قتلا بالسيف، إنما أخاف فتنة السوط، فسمعه بعض أهل الحبس، فقال: لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلا سوطان، ثم لا تدري أين يقع الباقي، فكأنه سري عنه ([2]).

ولما استعصى على المأمون وأهل البدع التأثير على الإمام أحمد بن حنبل في ميدان الحجة والإقناع، أمر بإشخاصه مكبلا في الأغلال، فتوجه الإمام أحمد بالدعاء إلى الله تعالى أن لا يجمع بينه وبينه؛ فبينما هو في الطريق وقبل وصوله إليه إذ جاءهم الصريخ بموت المأمون، وكان موته في شهر رجب سنة ثماني عشرة ومائتين، فرد الإمام أحمد إلى بغداد وحبس هناك([3]).

وبعد موت المأمون، ولي الخلافة المعتصم، وهو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد، الذي قدم من بلاد الروم، فدخل بغداد في مستهل شهر رمضان سنة ثماني عشرة ومائتين، فامتحن الإمام أحمد، وضرب بين يديه، وكان الإمام أحمد ثابت الجنان قوي الإيمان، وقد باع نفسه لنصرة دين الله.

يرد على مخالفيه بالبرهان الساطع، والدليل القاطع، وهم يعجزون عن ترغيبه أو ترهيبه ليقول بكلام المعتزلة (القرآن مخلوق).

وعذب حتى فقد الوعي وبقيت آثار الضرب والتعذيب على جسده حتى مات، وكان يرد على من يذكره بأنه إمام بأن هذا "دينه فيحمد الله على دينه وأنه لو أجابهم

([1]) الحديث رواه البخاري، كتاب الإكراه (رقم/٦٩٤٣) عن خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: "قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون".

([2]) سير أعلام النبلاء (١١/٢٤٠).

([3]) سيرة الإمام أحمد (ص: ٥٠) بتصرف.

بما يريدون لكفر وذلك تجنبا للرياء والسمعة" ([1]) ورمي - رحمه الله رحمة واسعة - بالضلال كعادة أهل البدع في رميهم لأهل السنة بالبدع والضلال ([2]).

والإمام أحمد لا يزيد على لزوم نصوص الشرع ودعوتهم إليه، وهم لم يتركوا قولا منكرا ولا ضلالة؛ إلا قالوها لعلهم يثنونه عن ثباته.

يقول حنبل: قال أبو عبد الله: "لقد تكلموا بكلام، واحتجوا بشيء ما يقوى قلبي ولا ينطق لساني أن أحكيه، والقوم يرجعون إلى التعطيل في أقاويلهم، وينكرون الرؤية والآثار كلها، ما ظننت أنهم هكذا حتى سمعت مقالاتهم ([3]).

وتولى الواثق الحكم في ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين، ولم يتعرض للإمام أحمد، وقد رأى أن التعذيب لا يفيد فيمن كانت إرادته كالحديد، وعرف فيه أنه عن الحق لن يحيد، ورأى أتباعه في مزيد، فأمر الناس بمقاطعته وأن يبتعد عن الأمير وعن الناس، فأطاعه الإمام أحمد فلا يزال أبو عبد الله مختفيا في البيت لا يخرج إلى صلاة ولا إلى غيرها حتى هلك الواثق ([4]).

ولحق الإمام أحمد من البلاء الشيء الكثير، وهو صابر على الابتلاء من أهل البدع، ومن تسلط السلطان، ومع ذلك كان لا يخبر الناس بما أصابه، ولا يحرضهم على الإمام مع ثباته على الحق وملازمته للنصوص حتى ولاية المتوكل ([5]) وهو أبو الفضل جعفر بن المعتصم، الذي كانت ولايته في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين- وأظهر الله به السنة وأهلها، وفرج الله به عن الناس، وخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد، ونهى عن الجدال والمناظرة في الآراء وعاقب عليها، وأمر بإظهار الرواية للحديث، فأظهر الله به السنة، وأمات به البدعة، وكشف

([1]) سير أعلام النبلاء (٢٥٩/١١) بتصرف.

([2]) المرجع السابق (٢٣٦/١١) بتصرف.

([3]) الإبانة الكبرى (٢٥٣/٦ت/٤٣٣).

([4]) سير أعلام النبلاء (٢٤٧/١١) وابن أبي شيبة (٣٤٥/٧/رقم ٣٦٦١٦).

([5]) سير أعلام النبلاء)٢٤٢/١١) بتصرف.

عن الخلق تلك الغمة، وأنار به تلك الظلمة، وأطلق من كان قد اعتقل بسبب القول بخلق القرآن.

وعظمت مكانة الإمام أحمد لدى الخليفة المتوكل؛ فكان لا يولي أحدا إلا بمشورته، ومكث الإمام إلى حين وفاته قل أن يأتي يوم إلا ورسالة الخليفة تنفذ إليه في أمور يشاوره فيها ويستشيره، رحمهما الله ورضي عنهما.

ووشي به عند المتوكل وابتلي بتفتيش منزله وأهله وكان يقول: "وإني لأرى له السمع والطاعة في عسري ويسري، ومنشطي ومكرهي، وأثرة علي، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار..." ([1]).

ويمتثل في هذا بحديث عبادة بن الصامت "بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله". ([2]).

وكان همه - رحمه الله - جمع كلمة المسلمين على الحق، والبعد عن الفتنة حتى مات - رحمه الله رحمة واسعة.

نصيحة الإمام أحمد للفقهاء وللأمة بأجمعها:

التزم الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - بالنصوص الشرعية في الثبات على الحق، وفي طاعته لولي الأمر، ودرء الله به فتنا عظيمة وكان نموذجا لتطبيق السنة والتقيد بها، والأمثلة على ذلك من حياته كثيرة جدا، وكان ذلك جليا في لزومه للنصوص وتطبيقه لها أيام فتنة القول بخلق القرآن، وما تبعها من رغبة الناس في الخروج على الولاة، وما هاجت فيه الأمة وماجت من فتن، وقد ثبت الله به أهل الحق، وأظهر به السنة، وإن نصيحته للفقهاء ولعامة الناس بعدم الخروج على الولاة والصبر على الفتنة الخاصة؛ خشية الوقوع في الفتنة العامة تعد درسا للأجيال اللاحقة حتى قيام الساعة، من ذلك ما روى محمد بن أبي هارون، ومحمد بن جعفر، أن أبا الحارث حدثهم قال: سألت أبا عبد الله في أمر كان حدث ببغداد، وهم قوم بالخروج، فقلت:

([1]) سير أعلام النبلاء (٢٦٧/١١).

([2]) رواه البخاري، كتاب الفتن (رقم/٧٠٥٦) ومسلم، كتاب الإمارة (رقم/١٧٠٩).

"يا أبا عبد الله، ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم، فأنكر ذلك عليهم، وجعل يقول: سبحان الله، الدماء، الدماء، لا أرى ذلك، ولا آمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أما علمت ما كان الناس فيه، يعني أيام الفتنة، قلت: والناس اليوم، أليس هم في فتنة يا أبا عبد الله؟ قال: وإن كان، فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمت الفتنة، وانقطعت السبل، الصبر على هذا، ويسلم لك دينك خير لك، ورأيته ينكر الخروج على الأئمة، وقال: الدماء، لا أرى ذلك، ولا آمر به" ([1]).

ويشير في قوله: "فإذا وقع السيف عمت الفتنة" إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة" ([2]).

ومن مواقفه أيضا ما رواه أبو بكر الخلال، قال: أخبرني علي بن عيسى، قال: سمعت حنبلا يقول في ولاية الواثق: اجتمع فقهاء بغداد إلى أبي عبد الله، أبو بكر بن عبيد، وإبراهيم بن علي المطبخي، وفضل بن عاصم، فجاءوا إلى أبي عبد الله، فاستأذنت لهم، فقالوا: يا أبا عبد الله، هذا الأمر قد تفاقم وفشا، يعنون إظهاره لخلق القرآن وغير ذلك، فقال لهم أبو عبد الله: "فما تريدون؟ قالوا: أن نشاورك في أنا لسنا نرضى بإمرته، ولا سلطانه، فناظرهم أبو عبد الله ساعة، وقال لهم: "عليكم بالنكرة بقلوبكم، ولا تخلعوا يدا من طاعة، ولا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم، انظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بر، أو يستراح من فاجر"، ودار في ذلك كلام كثير لم أحفظه ومضوا، ودخلت أنا وأبي على أبي عبد الله بعدما مضوا، فقال أبي لأبي عبد الله: نسأل الله السلامة لنا ولأمة محمد، وما أحب لأحد أن يفعل هذا، وقال أبي: يا أبا عبد الله، هذا عندك صواب، قال: لا، هذا خلاف الآثار التي أمرنا فيها بالصبر"، ثم ذكر أبو عبد الله قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن ضربك فاصبر، وإن ..وإن فاصبر"، فأمر بالصبر، قال عبد الله بن مسعود: وذكر كلاما لم أحفظه "وقال ليس هذا صواب، هذا خلاف الآثار" ([3]).

([1]) السنة لأبي بكر بن الخلال (١٣٢/١ رقم/ ٨٩).

([2]) رواه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم (رقم/٤٢٥٢).

([3]) السنة لأبي بكر بن الخلال (١٣٣/١ رقم ٩٠).

وهو يشير إلى نصوص كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أمر فيه بالصبر منها ما وعظ به الصحابة عندما استأذنوه صلى الله عليه وسلم في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ فقال: "لا، ما أقاموا الصلاة" (1). وقال: "من رأى من أميره ما يكرهه، فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعته" (2).

وحديث أبي سعيد، قال صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (3).

وحديث عبد الله بن عمر قال صلى الله عليه وسلم: "من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة ، مات ميتة جاهلية" (4).

وقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود: "اتقوا الله واصبروا حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر، وعليكم بالجماعة، فإن الله لا يجمع أمة محمد على ضلالة" (5).

وحديث حذيفة وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك، فاسمع وأطع" (6).

الإمام أحمد يقول هذا، وقد آذاه السلطان وجلده وسجنه، ثم منعه من لقيا الناس، لكن أهل السنة أهل عدل واجتماع ومتابعة للنصوص يرجون ما عند الله تعالى.

وحقا إنها السنة، فمن لزمها فقد استمسك بالعروة الوثقى، والحق المبين، ووفق لحسن الجواب، فهذا الإمام أحمد يضرب ويؤذى ويعزل عن الناس، ويفتش منزله وأهله، ومع ذلك يصبر ويثبت على الحق ولا يتجاوزه، ولا يداهن، ولا ينافق، ويصبر، ويأمر أتباعه بالصبر ويخبرهم أن مخالفتهم للنصوص وارتكابهم طريق الخروج على الإمام معصية ويذكرهم بالآثار حتى في أضيق الظروف وأصعبها، وهكذا التقوى إذا

---

(1) رواه أحمد (رقم/١١٢٢٤٠).

(2) رواه البخاري، كتاب الفتن (رقم/٧٠٥٤) ومسلم، كتاب: الإمارة (رقم/١٨٤٩).

(3) رواه مسلم، كتاب الإيمان (رقم/٤٩).

(4) رواه مسلم، كتاب الإمارة (رقم/:١٨٥١).

(5) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (رقم/٣٧١٩٢).

(6) رواه مسلم، كتاب الإمارة (رقم/١٨٤٧).

خالطت بشاشة القلب أخلفت في صاحبه بصيرة ومعرفة بمراد الله وطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وجنبت صاحبها اتباع الشهوات وحب الذات.

فليت قومي يعلمون ما في سيرة السلف الصالح من علاج لما يحدث من فتن وما يعترض حياتنا من معضلات، وسبل علاجها، وليتهم يفهمون قول ناصح، وليتهم يعون إنذار نذير عريان، فها هي الحروب الطاحنة، وها هو القتل وإزهاق الأرواح والانتهاك للأعراض واستحلال للأموال بالباطل، وسبب ذلك كله بعدهم عن فهم نصوص الكتاب والسنة وبعدهم عن منهج سلفهم الصالح في مراعاة المصالح والمفاسد، واستبدال ذلك بسماع أصوات الناعقين الذين يقولون ما لا يعون، ويعملون خلاف ما يعتقدون، ويتبعون الشهوات وفي كل واد يهيمون، حتى اختلط الحابل بالنابل، فلا اتبعوا الآثار وسلموا في دينهم ودنياهم، ولا بقي لهم من دنياهم شيء، وهذه عواقب المعصية، خسران ووبال على أهلها، نسأل الله لهذه الأمة عودا حميدا إلى دينها وتمسكا بنصوص شرعها. والله أعلم.

تطبيق الإمام أحمد للسنة في لزوم الجماعة:

الإمام أحمد هو إمام أهل السنة والجماعة، فلا غرابة في لزومه للسنة، وصبره على الأذى في سبيلها؛ لذلك ضرب أروع الأمثلة على الصبر ولزوم السنة لإظهار الحق، ويتجلى ذلك في موقفه في الفتنة التي ظهرت في زمنه، وهي القول بخلق القرآن الكريم، وذلك في جانب الثبات على الحق؛ لأنه إمام يقتدى به، وحتى لا تهلك الأمة في هذه البدعة، كما لزم نصوص الشرع في لزوم جماعة المسلمين وطاعة ولي الأمر في غير معصية الله عز وجل، وحض العلماء والفقهاء وعامة الناس على الصبر وعدم الخروج ومنابذة ولي الأمر وكان يقول: "عليكم بالنكرة بقلوبكم، ولا تخلعوا يدا من طاعة، ولا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم، انظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بر، أو يستراح من فاجر"، ويقول: "هذا خلاف الآثار التي أمرنا فيها بالصبر"، ثم ذكر وقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن ضربك فاصبر، وإن ... وإن فاصبر" ([1]). وذكر قول عبد الله بن مسعود في حثه على لزوم جماعة المسلمين.

([1]) السنة لأبي بكر بن الخلال (١٣٢/١).

وهو يشير إلى أدلة شرعية أقام بها الحجة على المخالفين، ومنها حديث حذيفة بن اليمان، قال صلى الله عليه وسلم: "تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك، فاسمع وأطع" ([1]).

وقول عمر لأبي أمية: إني لا أدري، لعلي لا ألقاك بعد عامي هذا، فإن أمر عليك عبد حبشي مجدع فاسمع له وأطع، وإن ضربك فاصبر، وإن حرمك فاصبر، وإن أراد أمرا ينقص دينك، فقل: سمعا وطاعة، دمي دون ديني، ولا تفارق الجماعة" ([2]).

وقول عبد الله بن مسعود: "اتقوا الله واصبروا حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر، وعليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمة محمد على ضلالة" ([3]).

ومن لزم السنة كان له أجر المتابعة وأجر حفظ دماء المسلمين ولزوم جماعتهم، ودرء ما يكون سببا في هلاكهم باستحلال الدماء، وانتهاك الأعراض، وقد نصح الإمام أحمد أصحابه وشدد في نصحه لهم ووعظهم وإرشادهم إلى لزوم النصوص، وذكرهم بعواقب الخروج عن النصوص والخروج على الولاة، وأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وكان "يقول: سبحان الله، الدماء، الدماء، لا أرى ذلك، ولا آمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أما علمت ما كان الناس فيه، يعني أيام الفتنة، قلت: والناس اليوم، أليس هم في فتنة يا أبا عبد الله؟ قال: وإن كان، فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمت الفتنة، وانقطعت السبل، الصبر على هذا، ويسلم لك دينك خير لك، ورأيته ينكر الخروج على الأئمة، وقال: الدماء، لا أرى ذلك، ولا آمر به" ([4]).

وهذه المواقف غيض من فيض من سيرة إمام أهل السنة والجماعة في لزومه للنصوص الشرعية في حياته ووصيته للأمة بذلك، وأن الفتنة الخاصة يصبر عليها إذا

([1]) رواه مسلم، كتاب الإمارة (رقم/١٨٤٧).

([2]) السنة لأبي بكر بن الخلال (١/١١١).

([3]) (٧/٤٥٧ رقم ٣٧١٩٢) والمعجم الكبير للطبراني (١٧/٢٤٠ رقم ٦٦٦) والإبانة الكبرى لابن بطة (١/٣١٣ رقم ١٤٩).

([4]) السنة لأبي بكر الخلال (١/١٣٢ رقم/٨٩).

كان في علاجها وقوع ما هو أكبر من الشر، ففتنة القول بخلق القرآن على عظمها وشناعتها وقبحها، إلا أن الخروج على الولاة فيها شر وبلاء أعظم يأتي على الأخضر واليابس، فهو شر بدليل النصوص وبالتجارب، فما مر على الإسلام فتنة أعظم من الخروج على الولاة.

يقول ابن القيم - رحمه الله - :"أن النبي صلى الله عليه وسلم شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم؛ فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر، "وقد استأذن الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ فقال: لا، ما أقاموا الصلاة" وقال: "من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعته" ([1]) ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر؛ فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك – مع قدرته عليه – خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد؛ لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه كما وجد سواء" ([2]).

وهذا يجلي فقه الإمام أحمد رحمه الله لنصوص الكتاب والسنة وتطبيقها في حياته، وخاصة في وقت الفتن، والله أعلم.

❖❖❖

([1]) رواه مسلم، كتاب: الإمارة، برقم: (١٨٥٥).

([2]) أعلام الموقعين عن رب العالمين (١٢/٣).